تحديات أمام الحوار الوطني الفلسطيني

د. فريد أبو ضهير
قسم الصحافة – جامعة النجاح الوطنية

قد يكون الإفراط في التفاؤل بشأن الحوار الوطني الفلسطيني أمرا مخيفا إذا ما أخذنا في الاعتبار المخاطر والتحديات التي تقف في طريق هذا الحوار. ولكن بالطبع لا ننكر هنا على المتفائلين تفاؤلهم، ولكننا نحذر من عدم الالتفات إلى التحديات والمعيقات التي تعترض هذا الحوار. وفي المقابل، فإن هذا لا يعني عدم الاكتراث بمخاوف المتشائمين الذين، وحسب بعض الاستطلاعات، متشائمون من إمكانية تحقيق الحوار النتائج المرجوة منه.

في البداية، لا بد من الإشارة إلى مسألة مهمة، وهي أن هذا الحوار لا يشكل أول تجربة فلسطينية في الفترة الأخيرة. وهذا يعني أن التجربة متكررة، وحديثة، والذاكرة الفلسطينية ما فتئت تحمل في طياتها عوامل النجاح والفشل التي صبغت التجارب السابقة. ولذلك، فإن الثقة بأن المحاورين مدركون للتحديات التي قد تعترضهم، لا شك قائمة. وهذا يعني أنه لن يكون مستغربا أن تستغرق جولات الحوار وقتا أطول من المتوقع، وهذا ما أظن أنه سيحدث. إن ضمانات نجاح الحوار بادية بوضوح، رغم عدم قدرة أي طرف خارجي، أو حتى داخلي، تقديم ضمانات ملموسة. ولكن هناك أمران لا بد من التأكيد عليهما، يشكلان بالتأكيد ضمانة بينة لنجاح الحوار: الأول هو حاجة الأطراف جميعا للحوار، على اعتبار أن كل السبل الأخرى ليست خيارات في الوقت الراهن، خاصة بعد كل ما جرى على الساحة الفلسطينية من أحداث يعلمها القاصي والداني، وليس موضع فخر للشعب الفلسطيني.

وهذا بالطبع يشمل المراهنة على الجهات الخارجية، والارتباطات بالأجندات المختلفة، كما يشمل خيارات الإقصاء التي مرت بها التجربة الفلسطينية في السنوات الأخيرة.

الأمر الثاني هو أن الحوار ينبغي أن يكون عملية مستمرة لا تتوقف، على اعتبار أن الخلافات يمكن حلها بالحوار، وأنه يجب عدم إغلاق الباب أمامه. وهذا يعني أنه لا ينبغي أن يكون هناك سقوفا من أي نوع للحوار الوطني الذي من شأنه أن يقدم التسويات التي تمثل القواسم المشتركة والحلول المقبولة للأطراف المختلفة، مع الإدراك بصعوبة الأمر.

من هنا، فإن أهم التحديات التي ينبغي الإشارة إليها في الحوار الوطني الفلسطيني هي التفاصيل المتعلقة بالقضايا الأساسية التي سيتناولها البحث من خلال اللجان الخمس.

وهنا لن ندخل في هذه المسألة، ولكن نشير إلى أن القضايا الخلافية مليئة بالألغام، وتحتاج إلى حوار هادئ ونفس طويل، ومقاربات صعبة في بعض الأحيان، والتروي في تفكيك الإشكاليات التي تكمن بين طيات هذه التفاصيل. ولنأخذ مثالا على ذلك القضية التي طرحها الرئيس أبو مازن مؤخرا، وهي برنامج حكومة الوحدة الوطنية. فقد قال الرئيس بأن حكومة الوحدة الوطنية يجب أن تقبل بحل الدولتين والتزامات السلطة الفلسطينية. ومع أن هذا الموقف للرئيس الفلسطيني لم يتغير منذ فوز حماس في انتخابات 2006 ، إلا أن الحديث في هذا الأمر، في رأي المراقبين، سابق لأوانه، على اعتبار أن هناك لجنة مختصة بالحكومة الفلسطينية ستناقش هذه التفاصيل، وتحدد برنامج الحكومة. ولكن هذه القضية ستكون قطعا واحدة من الأمور التي تحتاج إلى جهود كبيرة لحلها، وإيجاد الصيغة المناسبة لجميع الأطراف. والأم ر بالطبع يأخذ منحى أكثر تعقيدا عند الحديث عن منظمة التحرير والأجهزة الأمنية وغيرها من الملفات.

لكن، بالإضافة إلى ما ذكرنا، هناك نوعان من التحديات من المهم عدم إغفالهما، بل قد يشكلان السبب الأهم في الالتفات إليهما، والإصرار بالتالي على مواجهتهما، والتغلب عليهما. النوع الأول يتعلق بالمتضررين من الحوار الوطني، سواء على الصعيد الخارجي أو الداخلي. وهذا أمر غاية في الخطورة، حيث أن إمكانية وضع العراقيل ليس بالأمر المتعذر، ولكن تذليلها يمثل قدرة تفاوضية، وإرادة غير عادية من جميع الأطراف. وفي هذا الصدد، لا

بد من التأكيد على خطورة التحدي الخارجي، والمتمثل بمواقف إسرائيل، وربما دول عربية وإقليمية وأوروبية والولايات المتحدة. وبالطبع يمكن مواجهة كل ذلك بتأكيد القرار المستقل، وعدم الارتهان إلى أية جهة خارجية، بل والعمل على فرض التصور الوحدوي على الآخرين.
الجانب الثاني من التحديات الجوهرية التي تواجه الحوار الوطني هو المنظور الذي من خلاله يشارك كل طرف في الحوار. وهذا يعني أهمية الارتقاء إلى مستوى التحديات، وتقديم المصلحة الوطنية العليا على المصالح الفئوية والحزبية والشخصية لدى كل طرف.
إن التخندق خلف المواقف الحزبية، دون وضع المصلحة العليا فوق كل اعتبار هو أمر في غاية الخطورة، ومن شأنه أن يفشل الجهود المبذولة كافة والهادفة لإنهاء الانقسام.
هناك من يقول أن الحوار الذي انطلق في القاهرة هو الفرصة الأخيرة، ولكني أقول إنه الفرصة الوحيدة، والتي يجب أن تستمر وتتواصل حتى الوصول إلى صيغة توافقية وطنية تؤسس لنظام سياسي فلسطيني للمرحلة القادمة، سيما وأن أي حكومة إسرائيلية قادمة لا تقيم أي اعتبار للسلام، بل لا تقيم أي اعتبار لوجود الشعب الفلسطيني وحقوقه الوطنية المشروعة.
إن فشل الحوار، لا سمح الله، ليس خيارا، ولا ينبغي أن يكون كذلك بالمطلق. ومعاناة الشعب الفلسطيني لا يجوز أن تكون من داخله، طالما أن وجوده مهدد من الخارج. ومما لا شك فيه أن للإنسان الفلسطيني دورا أساسيا في تعزيز هذا الحوار، وعدم إتاحة الفرصة لأي طرف من الأطراف للإفلات من هذا الحوار الذي يمثل قضية مصيرية للشعب الفلسطيني.
وحوار ناجح لا بد له من عناصر مهمة، منها، على سبيل المثال لا الحصر، وجود آليات تفصيلية لتنفيذ الأمور التي يتم التوافق عليها، ثم اعتماد الحوار كآلية دائمة ومستمرة لحسم الخلافات وتقريب وجهات النظر، والوصول إلى الحلول المثلى التي يتوافق عليها الجميع.